

د. سهام مادن
جامعة الجزائر

الملخص:

قد حاول المستشرقون والمغرضون الإساءة للغة العربية فانطلقوا في عملهم من النقطة الرئيسية فيه وهي الإعراب الذي يعتبر أساس اللغة العربية، وسنحاول توضيح ذلك من خلال هذا العمل.

Résumé :

La langue Arabe est une langue qui jouit d'une grammaire spécifique et importante, Mais hélas nombreux essayent de défier tout ce qui est en relation avec notre langue Arabe. On va essayer de démontrer la noblesse et la richesse de notre langue Arabe démentir cette catégorie qui veut nuire à notre Noble langue Arabe..

تعتبر اللغة العربية لغة عريقة تمتد جذورها إلى الماضي (العصر الجاهلي) فهي لغة الشعر الجاهلي، وازدادت هذه الأخيرة رونقا بمجيء الإسلام، بحيث اتسعت رقعتها وعمت العالم، فكان القرآن الكريم الدافع الأساسي الذي أدى باللغة العربية إلى الانتشار، فسافرت بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، وهذا شوقي ضيف يقول فيها: "وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمع العرب..."¹.

إن لغتنا العربية لغة قرآنا الكريم، وهي لغة ذات قواعد ثابتة أساسها الإعراب. وسنحاول إن شاء الله التطرق إلى العناصر الآتية:

تحديد مفهوم الإعراب لغة واصطلاحا.

الادعاءات المغرضة لبعض المستشرقين والرد عليهم.

الحجج والبراهين للرد عليهم.

تحديد مفهوم الإعراب:

لغة:

عرف ابن جني الإعراب لغة قائلا: "وأما لفظه فإنه مصدر. أعربت عن الشيء

إذا أوضحت عنه، وفلان معرب عما في نفسه أي مبين له، وموضح عنه..."². فالإعراب من

أعرب الإنسان إعرابا إذا أبان وأفصح عما في نفسه.

اصطلاحا:

عرّفه الزجاجي قائلاً: "إنّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة، ومضافا إليه، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة،

جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني فقالوا: ضرب زيدُ عمرًا، فدلوا برفع زيد على أنّ الفعل له، وبنصب عمرو على أنّ الفعل واقع به. وقالوا: ضرب زيدُ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أنّ الفعل مالم يسمّ فاعله وأنّ المفعول قد ناب منابه. وقالوا: هذا غلام زيد، فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه، وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني.³ فبالإعراب ميزنا بين الفاعلية والمفعولية والإضافة، ولهذا قال ابن جني: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت، أكرم سعيد أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول..."⁴ اتهامات بعض المستشرقين و الشعوبيين:

لقد حاول بعض المستشرقين والشعوبيين النيل من لغتنا العربية الفصحى متهمينها بشتى التهم نحاول إيجازها فيما يلي:

التشكيك في نشأة الدراسات اللغوية العربية:

ذهب المستشرق الفرنسي رينان E.Renan إلى القول أنّ النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني عن طريق السريانيين، ويؤكد هذا الكلام روند غرين Rundgren⁶ ويعدّ المستشرق الألماني ميركس A.Merx⁷ أول من طرح هذه المسألة طرحاً جاداً وذلك في كتابه "تاريخ صناعة النحو عند السريان".

وقد تزعم هذا الرأي المستشرق الألماني نولده Noldke، وقد قال في هذا الباب: "إنّ الأمر يبدو كما لو كان النحو العربي قد نما في الصحراء من تلقاء نفسه"⁸، ويضيف قائلاً: "إنه لا ينبغي أن ننكر وجود مؤثرات يونانية، وعلى وجه الخصوص أرسطوطالسية على النحو العربي."⁹ ذمّ النحو العربي:

قال الجنيد خليفته: "وفي هذا الكتاب محاولة للكشف عن العيوب التي تثقل اللغة العربية وتقف لها حجر عثرة دون المرونة والانتشار، فرسمت أهمّ الصفات سواء ما يرجع إلى الخط والكتابة والإملاء، أو ما يرجع إلى قواعد النحو والصرف والاصطلاح والاشتقاق والمفردات."¹⁰ الدعوة إلى إلغاء الإعراب:

الحقيقة أن الدعوة إلى ترك الإعراب قديمة، فمن الأوائل الذين نادوا بإلغاء الإعراب قاسم أمين (1863م-1908م) وذلك في خضم دعائه لتحرير المرأة حيث قال: "لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن، أليس هذا برهان على وجوب إصلاح اللغة العربية. لي رأي في الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل. بهذه الطريقة، وهي طريقة جميع اللغات الأفرنكية واللغة التركية، يمكن حذف قواعد النصب والجوازم والحال والاشتغال، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هي. في اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم، أما في اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ..."¹¹.

وتوالى الدعاوى ضد اللغة العربية أمثال أنيس فريحة الذي نادى في كتابه "نحو عربية ميسرة" إلى ترك الإعراب والاتجاه إلى العامية¹²، وذهب سلامة موسى في مقال له عام 1926م إلى الدعوة إلى إلغاء الإعراب وإحلال العاميات بدل الفصحى¹³.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى درجة أنهم أعدوا النحويين الذين يتمسكون بالإعراب جهلاً تافهين يهتمون بالعرض دون الجوهر، لأن الإعراب من قبيل الأنافة، وأن الفصاحة والبلاغة في الخروج عن الإعراب، وهذا الذي دعا إليه جبر ضومط عام 1929م، ومن ذلك قوله: "والعاقل يعلم أن علامات الإعراب في اللغة إنما هي من قبيل الأنافة والمواضفة لا من قبيل الجوهر والحقيقة..."¹⁴

وتواصلت جهودهم وتنوعت بين الشعبويين والمستشرقين، فمن المستشرقين نذكر المستشرق كارل فولرز Karl Vollers، الذي دعا إلى إلغاء الإعراب وإحلال العاميات¹⁵، وسار على دبره جمع كبير أمثال باول كاله Paul Kalhe¹⁶، ويليام ويلكوكس William Wilcox وهو مهندس الري الإنجليزي الذي وفد إلى مصر سنة 1883م في أول عهد الاحتلال البريطاني في مصر فحاول ضرب اللغة العربية الفصحى بشئى الطرق¹⁷، ومن البديهي أن كل دعوة لإسقاط الإعراب تكون متبوعة بدعوة إلى العامية، ولقد ذهب المستشرقون إلى أبعد من ذلك فحاولوا النيل من لغة القرآن الكريم متهمينه بشئ كثيرة كقول المستشرق رينولد نيكولسن¹⁸: "إن مؤلف كتاب ألف ليلة وليلة أشهر في أوروبا من القرآن نفسه..."¹⁹.

إن الثاحل على لغة القرآن الكريم وعلى الإسلام واضح المعالم عند كثير من المستشرقين.

الرّد على هذه الادعاءات المغرضة:

الإعراب أساس اللغة العربية:

قال ابن جني: "الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيداً أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول..."²⁰.

فلغتنا العربية لغةً مُعربةً، ألا ترى في قول الله عز وجل: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)²¹ أنه لولا الإعراب لعدَّ "الله" فاعلاً والإيعاذ بالله، و"العلماء" مفعولاً به، وقد قال ابن الأثير: "لكن الإعراب ضرورة في قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)"²²

ونحن نقول إن الإعراب ليس ضرورة فقط لهذه الآية الكريمة، بل إنه أساس اللغة العربية، وهو نتيجة العوامل، وهذا ما قاله القلقشندي: "إن الأديب إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه، ذهب محاسن ما أتى به، وانهدمت طبقة كلامه، وألغى جميع ما حسنه، ووقف عند جهله."²³، ومما ورد أيضاً: "واللحن قبيح في كبراء وسر اتهم، كما أن الإعراب جمال لهم، ذلك أن اللحن يغير المعنى ويقلبه عن المراد إلى ضده، حتى يفهم السامع خلاف المقصود."²⁴

ولقد أشاد كثير من العلماء بقيمة الإعراب فهو عماد اللغة العربية كقول ابن فارس: "من العلوم الجلية التي اختصت بها العرب، الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا نفي من استفهام، ولا صدر من مصدر ولا نعت من توكيد."²⁵، وأضاف ابن فارس قائلاً: "فأما الإعراب: فيه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلاً لو قال: "ما أحسن زيد، غير معرب، أو ضرب زيد عمرو، غير معرب، لم يوقف على مراده."²⁶ وقال ابن قتيبة في المعنى نفسه: "وللعرب الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامهم، وحليته لنظامهم. وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان أن يكون الفعل لكل واحد منهما، إلا بالإعراب، ولو أن قائلاً قال: هذا قاتل أخى (بالتنوين) وقال آخر: هذا قاتل أخى (بالإضافة)، لدل بالتنوين على أنه لم يقتله، وبحذف التنوين على أنه قتله."²⁷ ونفهم من هذا كله أن الإعراب ضروري لفهم الكلام العربي، فنحن لا نستطيع أن نعرف الفاعل من المفعول، ولا المضاف من المضاف إليه دون الإعراب، وهذا يجرنا إلى الحديث عن العامل الذي ينتج الحركات الإعرابية.

اعتماد اللغة العربية على مفهوم العامل:

تعتمد الجملة الإعرابية على العامل الذي هو المؤثر في الكلمات، وهو نوعان:

عامل لفظي وعامل معنوي.

وقد عرّف ابن جني العوامل في قوله: "وهي ضربان: أحدهما معنوي والآخر لفظي. وهذان الضربان وإن عمّا وفشوا في هذه اللّغة، فإن أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي...²⁸ وقال أيضاً: "وإنما قال النّحويّون: عامل لفظي، وعامل معنوي، ليروّك أن بعض العمل يأتي مسبباً لفظ يصاحبه، كمررت بزید، وليت عمراً قائماً، وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلّق به، كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم...²⁹

فالعوامل إذن نوعان:

العامل المعنوي:

وذلك حينما يكون اللفظ عارياً من مؤثّر لفظي كرفع المبتدأ الذي عمل فيه الابتداء كما قال الزجاجي: "اعلم أن الاسم المبتدأ مرفوع وخبره إذا كان اسماً واحداً مثله وهو مرفوع أبداً وذلك قولك زيد قائم، فزيد مرفوع لأنه مبتدأ والابتداء معنى رفعه وهو مضارعة للفاعل وذلك أن المبتدأ لا بدّ له من خبره ولا بدّ من مبتدأ يسند إليه وكذلك الفعل والفاعل لا يستغني أحدهما عن صاحبه فلما ضارع المبتدأ الفاعل رُفِع...³⁰

إذن العامل في المبتدأ عامل معنوي من حيث إنّه خال من كلمة تسبقه تؤثر فيه، بل عامله هو الابتداء، كما وضّح النحاة ذلك كقول ابن جني: "وإنما نقول في رفع المبتدأ: إنّه إنّما وجب ذلك له من حيث كان مسنداً إليه، عارياً من العوامل اللفظيّة قبله فيه، وليس كذلك الفاعل، لأنّه وإن كان مسنداً إليه فإن قبله عاملاً لفظياً قد عمل فيه، وهو الفعل، وليس كذلك قولنا: زيد قائم، لأنّ هذا لم يرتفع لإسناد الفعل إليه حسب، دون أن انضمّ إلى ذلك تعريه من العوامل اللفظيّة من قبله. فلهذا قلنا ارتفع الفاعل بإسناد الفعل إليه، ولم يحتج فيما بعد إلى شيء نذكر، كما احتجنا إلى ذلك من باب المبتدأ...³¹

إذن نستخلص مما سبق ذكره أنّ:

العامل في المبتدأ عامل معنوي هو الابتداء، ولكن المبتدأ يحتاج إلى خبر يتم معناه.

العامل في الفاعل، الفعل وهو عامل لفظي، لكن الفاعل كما قال ابن جني لا يحتاج لكلمة بعده.

العامل اللفظي:

قال ابن هشام: "وبدأت من المرفوعات بالفاعل لأمرين، أحدهما أنّ عامله لفظي، وهو الفعل أو شبهه، بخلاف المبتدأ، فإن عامله معنوي، وهو الابتداء، والعامل اللفظي أقوى

من العامل المعنوي، بدليل أنه يزيل حكم العامل المعنوي، تقول في زيد قائم: "كان زيد قائماً" و"إن زيداً قائماً" و"ظننت زيداً قائماً" ولما بينت أن عامل الفاعل أقوى، كان الفاعل أقوى، والأقوى مقدم على الأضعف...³²

إذن نستخلص أن العامل اللفظي هو الكلمة التي تؤثر على الكلمات الأخرى، وهو أقوى العوامل، لأن المبتدأ مرفوع بعامل معنوي، لكن هذا الرفع يزول بدخول عوامل لفظية هي كان وأخواتها، أو إن وأخواتها، وغيرها، ومن هنا عد النحاة العامل اللفظي أقوى من العامل المعنوي وهذا ما أكدته كذلك جلال الدين السيوطي في قوله: "حدّ النحاة المبتدأ بأنه الاسم المجرد من عامل لفظي...فقولنا المجرد من عامل لفظي أخرج الفاعل ونائبه ومدّ خول النواسخ والخبر وقيد العامل باللفظي بناء على رأيهم أن عامل المبتدأ معنوي وهو الابتداء...³³

فمما سبق ذكره نستخلص ما يلي:

إسناد عامله لفظي كقولك: زيد منطلق، فزيد مرفوع بالابتداء ومنطلق خبر.
إسناد عامله لفظي كقولك: كان زيد منطلقاً أو إن زيدا منطلق وغيره، ف"كان" عامل لفظي أثر في المبتدأ فرفعه، وإن كان الأصل في المبتدأ الرفع، وأثر في الخبر فنصبه، أمّا إن فهو كذلك عامل لفظي، أثر في المبتدأ فنصبه، وأثر في الخبر فرفعه.
الإسناد الفعلي عامله لفظي في الحالتين وهما:
الفعل الذي هو عامل لفظي في الفاعل.

الفعل الذي هو عامل لفظي في نائب الفاعل، وهو كما سمّاه النحاة "ما لم يسمى فاعله"، ففي هذه الحالة يحذف الفاعل ويحلّ محله المفعول به الذي يعدّ نائب الفاعل، فيكون الفعل مؤثراً في نائب الفاعل الذي هو في الأصل مفعول به، وقد قال جلال الدين السيوطي: "الأصل جواز حذف المفعول به لأنه فضلة ويمنع في صور أحدهما أن يكون نائباً عن الفاعل لأنه صار عمدة كالفاعل...³⁴

ومما سبق ذكره نستشف أن الإعراب سمّة من سمات اللغة العربية الفصحى بل هو عمادها وبإمكاننا أن نحدّد أوجه الأهمية التي يحققها الإعراب على النحو التالي:
أهمية سياقية في تحديد معاني الكلام وتبيان فاعله من مفعوله.
أهمية لفظية نطقية في دفع التقاء الساكنين الذين لا تجيز قواعد اللغة التقاءهما.

أهمية إيقاعية موسيقية تتيح للمنشد أن ينشد.
أهمية عروضية تختص بتفعيلات البحور والأوزان.
أهمية صوتية تمكّن الخطيب من التأثير في السامعين.

الهوامش

- 1 شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط11 ت، ج2، ص31.
- 2 ابن جني: الخصائص، دار الكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1955م، ج1 ص35.
- 3 الزجاجي أبو القاسم، الإيضاح في علل النحو، دار العروبة، القاهرة، 1378هـ-1959م، ص69-70.
- 4 ابن جني، الخصائص، ج1، ص35.
- 5 إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأت الدراسات اللغوية العربية، دار حنين، عمان، الأردن، ط2، 1412هـ-1992م، ص18.
- 6 المرجع السابق ص20.
- 7 إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية- بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الإستشراقية، دار حنين، عمان، الأردن، ط2، 1412هـ-1992م، ص25.
- 8 Theodore Noldeke, Zur Grammatik des classischeur arabica ; Dar mstadt ;1963, page 414
- 9 المرجع السابق، ص415.
- 10 إدوارد السعيد، إضاءات على كتاب الإستشراق، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م، ص35.
- 11 قاسم أمين، تحرير المرأة، مطبعة الجريدة، مصر، 1908م، ص12-13.
- 12 أنيس فريحت، نحو عربية ميسرة دار الثقافة، بيروت، 1955م، ص122 لوص183.
- 13 سلامة موسى، مجلة الهلال، 1926م، ج10 السنة 34، ص1077-1073.
- 14 جبر ضومط، فلسفة اللغة العربية، مطبعة المقتطف والمقطم، مصر، سنة 1929، ص19.
- 15 بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص55.
- 16 بدوي عبد الرحمن، المصدر السابق، ص76.
- 17 نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، 1964، ص31.
- 18 رينولد نيكولسن، مستشرق انجليزي، ولد عام 1868م، توفي عام 1945م، له آثار عظيمة في الفكر الإسلامي وآدابه واللغة العربية، ارجع إلى: نجيب العقيلي، المستشرقون، بيروت، لبنان، ط1، 1937م، ج2، ص252، و527.
- 19 رينولد نيكولسن، تاريخ الأدب العربي، ترجمة صفاء خلوصي، مطبعة المعارف، بغداد، 1970م، ج1، ص110.
- 20 ابن جني، الخصائص، ج1، ص35.
- 21 سورة فاطر الآية 28.
- 22 ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر، الفجالة، دت، ص28.
- 23 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ج1، ص168.
- 24 القلقشندي، المصدر السابق، ج1، ص168-169.
- 25 أحمد بن فارس، الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص76.
- 26 ابن فارس، المصدر السابق، ص209.
- 27 أحمد رضا، المولد في اللغة، ص135.
- 28 ابن جني، الخصائص، ج1، ص109.

- 29 ابن جني، المصدر السابق، ج 1، ص 109-110.
- 30 الزجاجي، الجمل، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1926م، ص 48.
- 31 ابن جني، المصدر السابق، ج 1، ص 196.
- 32 ابن هشام أبو محمد، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 158.
- 33 السيوطي جلال الدين، همع الهوامع شرح جمع الجوامع في اللغة العربيّة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 93.
- 34 ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 197.